

شعر — ر و نثر

صديق العزيز هيكل

أدركنى مقالك الممتع حول الشعر والنثر فى هذا البلد
الذى أويت اليه من بلاد لبنان ، معتزلاً كل حركة علمية أو
أدبية إلى حين . ولعلك تذكر أنى كنت وعدتك بطائفة من
الفصول أرسلها اليك من لبنان أدرس فيها درساً رقيقاً شعر
شوقى والبارودى . ثم آثرت الكسل على العمل والراحة على
الجهد ، فاعتذرت اليك من هذا الوعد وسافرت ولم
اصطحب شعر شوقى ولا شعر البارودى . ومع ذلك فلى فى
الشاعرين رأى أنا على اظهاره حريص ، لا لأنى أراه فحسب ،
بل لأنى أرى فيه عدلاً وانصافاً ، وأرى أن هذا الجيل الذى
نحن فيه قد فتنه الجهل والشهوة فظلم وجار ، وأصبح من
الحق على النقاد أن يرفعوا هذا الظلم والجور . ورغم هذا
كله فقد آثرت نفسى بالراحة وأرجأت اعلان هذا الرأى
الى حين ، وأويت الى هذه الناحية الجميلة من نواحي لبنان

أتذوق فيها عذوبة الماء ورقة الهواء واعتدال الجو وحسن أخلاق الناس . وكنت أظن أن لن يصرفني عن هذه اللذة صارف حتى أعتزم العودة الى مصر لأستأنف فيها حياتنا الشاقة مع أول السنة ، ولكنني تورطت فطلبت اليك قبل السفر أن ترسل الى السياسة ، وتورطت فجعلت أنظر في السياسة كلها وصلت الى ، وتورطت فقرأت إعلاناً أذاعت فيه السياسة أنها ستنشر لك فصلاً في الشعر والنثر ، فتمنيت ألا تصل الى السياسة يوم تنشر لك هذا الفصل لأنى لا أستطيع أن أرى لك شيئاً في الأدب دون أن أقرأه ، وأن أقرأه في عناية وتدبر ، لأنى كنت كما قلت معزماً ألا أقرأ شيئاً ذا بال . فلما وصل الى هذا الفصل لم أجد بداً من قراءته وأنا أشكر لك أجل الشكر هذه الساعة اللذيذة التى أنفقتها فى قراءة هذا الفصل الممتع . فهو فصل ممتع حقاً فى لفظه وفى معناه وفى أسلوبه وفى طريقة عرضه على القراء . ويظهر لى أنك قد أصبحت من أشد الناس شرها إلى الثناء والاعجاب ولكنه شره محمود ، فانت لا تكتب إلا اضطررت قراءك إلى الثناء والاعجاب ، وانت لا تسمع ثناء ولا تحس إعجاباً الا ازددت اجادة وأمعنت فى الاتقان .

ولست أدري الى أين يذهب بك هذا الامعان في اجادة
البحث واتقان التفكير ، والتوفيق الى الجمال الفني فيما تكتب ،
وقد قيل ان لكل شيء حداً ، وأنا أومن بأن للثناء حداً
وللاعجاب حداً نحن منتهون اليه ، ولكني أومن بان ليس
للجمال الفني حد ، وإنما هو مثل أعلى يمضي أمامنا ونسعى نحن
في أثره فنبلغ منه شيئاً ثم نحس أن ما بلغناه ليس كل شيء ،
فنسعى ونسعى وهو يمضي ويمضي ، وإذا فسيزداد حظك من
الاتقان والاجادة ، وسنتهى نحن من الثناء عليك والاعجاب
بك الى حد لا نستطيع أن نتجاوزه ، وسيكون بيننا وبين
حقك علينا أمد ليس الى قطعه من سبيل .

أنت موفق حين تلاحظ أن النثر العربي في هذا العصر
قد نهض نهضة قيمة وأصبح أداة صالحة للتعبير عن حاجة
العقل والشعور بعد أن تطور العقل والشعور في هذا العصر
تطوراً لم تعرفه العصور القديمة العربية . وفي الحق أنا نستطيع
الآن أن نصف ألواناً من الآراء والخواطر في فنون من
القول مرنة سهلة راقية لم يكن لأبائنا بها عهد . وأنت موفق
أيضاً حين تلاحظ أن النثر العربي الحديث على رقيه وامعانه
في هذا الرقي لم يزل في حاجة الى كثير من المرونة واللين

والثروة اللفظية ، وأنه قد لا يحتاج إلى زمن طويل وجهد عظيم قبل أن يبلغ حاجته من هذا كله . وآية ذلك أنا نعجز أحيانا كثيرة عن أن نصف بعض الخواطر التي تخطر لنا والمواقف التي تجيش في صدورنا . بل نعجز عن أن ننقل خواطروآراء يراها الأوريون سهلة يسيرة بل مبتذلة وتضيق عنها ألفاظنا وأساليبنا لأنها مقيدة بطائفة من القيود اللغوية والنحوية الثقيلة التي لم نتفق بعد على طريق للتخلص منها . وآية ذلك أيضاً أنا نضطر في أحاديثنا وفي كتاباتنا إلى أن نستعير جملاً فرنسية أو انجليزية أو ألمانية أو إلى أن نستعير جملاً من لغتنا العربية العامة .

أنت موفق في هذا كله ، وموفق أيضاً حين ترى أن طائفة من الكتاب المحدثين قد استطاعوا أن يتمايزوا بأساليبهم وشخصياتهم وآرائهم ، وأن يستقلوا عن القدماء دون أن يتصل كل واحد منهم بواحد من أولئك القدماء . كل هذا حق ، وحق أيضاً أن الشعر بعيد كل البعد عن أن يصل إلى حيث وصل النثر من الرقي والقوة والمرونة ، وأن الشعراء بعيدون كل البعد عن أن يصلوا إلى ما وصل إليه الكتاب من التمايز بالفاظهم وأساليبهم وآرائهم

وشخصياتهم ، وأن يستقلوا عن القدماء من فحول الشعراء .
كل هذا لا سبيل الى الشك فيه ، وهو شيء نحسه جميعاً وقد
سبقت أنت فأعلنته وعرضته علينا وعلى الناس . ولكن لي
بعد هذا ملاحظتين أحب أن أعرضهما عليك ، وأحب أن تفكر
فيهما بعض التفكير ، وأرى إن فعلت فقد نرجح من هذا فصلاً
ممتعاً كالفصل الذى فرغت من قراءته منذ حين .

فأما الملاحظة الأولى فهي أنك قد وفقت الى كل هذه
الحقائق الواقعة واجتهدت فى عرضها وتوضيحها ، ولكنك لم
تبحث عن الأسباب التى دعت الى وجود هذه الحقائق
الواقعة ، فلماذا رقى النثر وسهل وساغ حتى أصبح أداة صالحة
 للتعبير ؟ ولماذا جمد الشعر أو قل ظل جامداً لا لين فيه ولا
 مرونة ولا جدة ولا حياة ؟ ولماذا استطاع الكتاب أن
 يتمايزوا بشخصياتهم القوية وأن يفرضوها على الناس فرضاً ،
وعجز الشعراء عجزاً فاحشاً عن أن تكون لهم هذه
الشخصيات حتى أصبح من أيسر الأمور على الناقد اذا قرأ
قصيدة لشوقي أو لحافظ أو غيرهما أن يرد هذه القصيدة الى
أصلها القديم الذى أخذت منه ، أو أن يرد كل جزء من
أجزاء هذه القصيدة الى أصله الذى أخذ منه ؟

حسن أن تذهب أيها الصديق مذهب أصحاب العلم الطبيعي فتلاحظ الظواهر الأدبية وتسجلها . ولكنى قلت لك غير مرة إن أساليب العلماء وحدها قد تعجز عن الكفاية في الأدب وفي النقد بنوع خاص ، وما الذى أفدته أنا حين عرفت أن النثر قد ارتقى وأن الشعر ما زال جامداً ؟ أأست ترى أن من الخير أن أعرف لم ارتقى النثر وجمد الشعر لأتزيد من أسباب الرقى ولاجهتد فى أن أتقى أسباب جمود الشعر وأخلص الشعراء منها ؟

والحق أنى فكرت كثيراً فى هذه الأسباب وفكرت فيها منذ اعوام حين كنا نعمل معاً فى تحرير السياسة وحين كنا نلاحظ فى شىء من الرضا والأمل أن فتنا النثرى يزداد فى كل يوم مرونة ويصبح فى كل يوم أداة صالحة فى أيدينا ، نتسلط بها على الخواطر والآراء والمعانى المتباينة فى جميع أنحاء الحياة ، وحين كنا نضحك ونتهالك على الضحك من شعر الشعراء وجموده وعجزه عن الحركة وخلوه من الحياة ، وحين كان كل واحد منا يلقى على صاحبه هذه الكلمة الكاذبة التى تقدم بها الى القراء شعر أصدقائنا الذين نسبغ عليهم مبتسمين فى سخرية ورحمة وإشفاق ، أشد الألقاب

ضخامة وفراغا ١

أنت تذكر هذه الأوقات ، وكيف تنساها وما زلت فيها ؟
أليست تصل اليك من حين الى حين قصائد شوق وحافظ
وغير شوق وحافظ فتفتن أو تكلف من أصحابك من
يفتن في ترصيع الألفاظ وتأليف الأسجاع مقدمة بين يدي
هذه القصائد ، وإن على شفئك لا ابتسامة لو رآها الشعراء
وفهموها لأعرضوا عن الشعر أو لسلكوا بالشعر طريقاً غير
هذه الطريق العقيمة التي لا يعرفون لها آخرأ ؟

فكرت في هذه الأسباب فلم أنته الا الى سبب واحد ،
يخيل الى أنه المؤثر الحقيقي في رقي النثر الحديث وجمود
الشعر في هذا العصر ، وأنا أعلم أن الشعراء سيدهشون
ويضحكون وسيغضبون ثم يثورون حين أعرض عليهم هذا
السبب . ولكنني قد تعودت من شعرائنا الدهش والضحك
والغضب والثورة وما هو فوق هذا . فسأعرض عليهم هذا
السبب مبتسماً بل ضاحكاً ان لم يقنعهم الابتسام .

شعراؤنا جامدون في شعرهم لأنهم مرضى بشيء من
الكسل العقلي بعيد الأثر في حياتهم الأدبية ، فهم يزدرون العلم
والعلماء ولا يكبرون الا أنفسهم ولا يحفلون الا بها ، وهم

لذلك أشد الناس انصرافاً عن القراءة والدرس والبحث والتفكير . وكيف يقرءون أو يتحدثون أو يفكرون وهم أصحاب خيال ، ومن شأن الخيال أن يصعد في السماء بجناحيه في غير تفكير ولا بحث ؟ فأما البحث والتفكير فشأن العقل ، والعقل عدو الخيال وهو عدو الشعر . والعقل ميزة الفلاسفة وميزة العلماء والشعراء أجل وأعلى أن يكونوا فلاسفة أو علماء إنما هم شعراء ! وإذا قلت شعراء فقد قلت كل شيء ، أو قل انك قلت شيئاً لا يفهم . وأنت تجلس الى شعرائنا وتحدث اليهم وتسمع لهم ، فهل رأيت منهم الا ازدراء لفلسفة الفلاسفة وعلم العلماء وبحث الباحثين ؟

هذا فيما أرى هو السبب الحقيقي لجمود الشعر العربي في هذا العصر ، فليس من الحق في شيء أن الشعر خيال صرف ، وليس من الحق في شيء أن الملكات الانسانية تستطيع أن تمايز وتتنافر فيمضى العقل في ناحية لينتج العلم والفلسفة ، ويمضى الخيال في ناحية لينتج الشعر ، وإنما حياة الملكات الانسانية الفردية كحياة الجماعة رهينة بالتعاون ، ومضطرة الى الفشل والاختفاق اذا لم يؤيد بعضها بعضاً . وأنا زعيم لك بأن العالم في معمله يستخدم الخيال أكثر مما يستخدمه الشاعر ،

ولولا هذا لما تصور ألوان التجارب والفروض الغريبة التي
تنتهى به دائماً الى استكشاف الحقائق العلمية الصحيحة .
فالعالم يستخدم الخيال ويستغله ويستعير جناحيه يطير بهما
ويصعد ويمعن في التصعيد ويعود ومعه نتائج القيمة . أما
الشاعر (العربي) فيزدري العقل ويستعين به ولا يستعير
مصباحه ولا يهتدى بنوره . واذاً فهو لا يستطيع أن يتقدم
لأنه في ظلمة حالكة ، وهو لا يستطيع أن يرى أمامه
فيضطر الى أن ينظر الى الوراء ويستعير شعر القدماء وخيال
القدماء . ومن الغريب أنه يستعير شعر القدماء في غير فهم
له ولا بصر به ، فان القدماء لم يعتمدوا على الخيال وحده وإنما
اعتمدوا على الخيال واستغلوا العقل استغلالاً عفيفاً . وأنا
أستطيع أن أؤكد لشعرائنا أن القدماء من شعراء العرب في
جاهليتهم واسلامهم كانوا أصحاب خيال وعقل وعلم ، بل
كانوا في الجاهلية يحتكرون العلم احتكاراً دون غيرهم من
الناس . فأما في الاسلام فقد كان الشعراء الأمويون يعلون
حظ عصرهم من العلم . وأستطيع أن أؤكد لشعرائنا أن
جريراً والأخطل كانا يعلنان علم الشعبي وابن عباس وغيرهما
من علماء عصرهما ، وكان أبو نواس محدثاً أخذ عنه الشافعي

وكان يشارك المتكلمين في مقالاتهم ، ويأخذ بحظ موفور من فلسفه الفلاسفة ، ويسخر من النظائم ومقالاته في الكبيرة والتوبة وما اليهما . فأما المتنبي وأبو العلاء فالنظر في شعرهما زعيم بأن يثبت لشعرائنا أنهما كانا أصحاب عقل وفلسفة ، وأن حظهما من القراءة والدرس لم يكن أقل من حظ العلماء والفلاسفة الذين عاصروهما .

الفرق بين الشعراء والكتاب في هذا العصر : أن الشعراء لا يقرأون ولا يتعلمون ولا يغنيهم أن يقرأوا أو يتعلموا ، فهم غير متصلين بعصورهم ، وهم لذلك عاجزون عن التقدم والتطور ، أما الكتاب فيقرأون ويتعلمون ويزيدون من القراءة والعلم ، ولا يرون الحياة الا قراءة وعلماً . فهم لذلك متصلون بعصرهم يقرأون فتضطرهم القراءة الى التفكير ، ويتعلمون فيضطرهم العلم الى البحث وتنشأ لهم من هذا شخصية قوية ملاكها العقل والخيال والابتكار معاً ، ولست أقيم على ذلك دليلاً معوجاً أو بعيد المنال ، وإنما ألفتك الى نفسك فأنت في قراءة متصلة . وأنت لا تعرض لكتاب تنقده حتى تقرأه أو تقرأ أكثره . وأنت لا تنقد هذا الكتاب حتى تقارن بينه وبين ما قرأته من أمثاله . فأما شعراؤنا فيقرأون في السماء وفي السحاب ولكنهم لا يقرأون في الكتب !

ولقد ترجم أستاذنا لطفى السيد أخلاق أرسططاليس
فقدته أنت ونقده العقاد ونقدته أنا ، وكلنا قرأ الكتاب كله أو
أكثره فى العربية وفى الفرنسية أو الانجليزية أو اليونانية ، وكلنا
قارن بين الترجمة وأصولها ، وكلنا فكر فى فلسفة أرسططاليس
وفلسفة أستاذه أفلاطون ، وكلنا حاول أن يقدر الأمد بين فلسفة
أرسططاليس والفلسفة الحديثة ، وكلنا حاول أن ينقد أو يقرظ
عن علم وبصيرة . وتقدم لتقريظ الكتاب شعر شوقى وحافظ
ونسيم ، وأنا أستحلف شعراءنا الثلاثة بخيالهم العزيز عليهم
هل قرأوا ترجمة الأستاذ لطفى السيد أو أصلا من أصول هذه
الترجمة ، بل هل قرأوا فصلا واحداً من الترجمة أو الأصل ،
أما أنا فاقسم ما قرأوا من الترجمة ولا من الأصل شيئاً ،
ولذلك أجتنب حافظ ونسيم موضوع الكتاب وفلسفة
صاحبه وذها يمدحان لطفى السيد وأرسططاليس ، وللطفى السيد
شخصية معروفة ولأرسططاليس شخصية معروفة . ويستطيع
الشاعر أن ينسج حول هاتين الشخصيتين ألفاظاً حلوة خلابة
لاتخلو من ضخامة ولا تبرأ من فراغ : فاما شوقى فأراد أن
يمتاز فعرض للفلسفة وفلسفة أرسططاليس ، ولكنه لم يستقها
من مصادرها كما يفعل العلماء ، لأنه لايجب أن يقرأ ولا يليق

به أن يقرأ وكيف يقرأ وله خيال يستطيع أن يصعد في السماء
فيرى فلسفة أرسطاليس في الجوزاء، وفلسفة أفلاطون في الثريا
وفلسفة سقراط في المريخ، فيأخذ من هذه الفلسفة ما يشتهي؟
وقد صعد خياله يومئذ في السماء وتقل بين الكواكب
السيارة والثابتة، ثم تنزل إلينا بفلسفة أضافها إلى أرسطاليس
فاذا هي فلسفة أفلاطون وقد نهته إلى ذلك يومئذ (في السياسة)
فغضب وغضب أصحابه وأنصاره وتحدث بعضهم بأن شوقي
لم يخطئ وإنما أخطأ أرسطاليس! وكيف لا وخيال الشعراء
وخيال أميرهم بنوع خاص أصدق من فلسفة الفلاسفة ومن فلسفة
المعلم الأول نفسه؟ ولو أنك قرأت شعر شوقي أو شعر حافظ
أو شعر نسيم أو شعر من شئت من هؤلاء الشعراء المعاصرين،
والتمست العلة لخلو هذا الشعر من الشخصية الحية لما وجدت هذه
العلة إلا في أن شعراء نايسرفون في الكبرياء فيؤثرون الجهل على
العلم والكسل على العمل، ويقرأون في الفضاء بدل أن يقرأوا
حيث يقرأ الناس، وهل كان فيكتور هوجو أو لامارتين
من الكسل والبطالة حيث يعيش شعراؤنا؟ كلا إن الشعراء
الغريبيين كشعراء العرب القدماء، يتصلون بعصورهم اتصالا
متينا، يقرأون ويدرسون ومنهم الطبيب ومنهم الطبيعي ومنهم

صاحب الكيمياء ، ومنهم من يتصرف في فنون العلم المختلفة .
مثل شعرائنا كمثل علماء الدين عندنا ، شعراؤنا يكتفون
بخيالهم ، ويعتمدون عليه وحده فينوء بهم هذا الخيال ، ويعجز
عن أن يرتفع في الجو ، ويصبح من العقم بحيث يفتج هذا
الشعر الجامد الذي تقرأه . وعلماء الدين يكتفون بكتبهم القديمة ،
ويحملونها كل شيء فتثقل بهم ويصيبهم العقم والفساد ، بينما
شعراء الغرب وعلماء الدين في الغرب يقرأون ويتعلمون
ويتصرفون في الفنون ، فهم علماء قبل أن يكونوا شعراء وقبل
أن يكونوا قسيسين .

وظاهرة الكسل هذه التي نجدها عند الشعراء ، والتي تفسد
عليهم الشعر تنتقل منهم بطريق للعدوى - فيما يظهر - إلى القراء
فيصيبهم الكسل هم أيضاً ، يصيبهم هذا الكسل العقلي فيفسد
عليهم ذوقهم الأدبي ، وإذا هم يحبون هذا الشعر ويكلفون به
بل يكتفون به بل يعجزون عن أن يسيغوا أى شعر آخر ، فيه أثر
ما من آثار الحياة العقلية القوية . مثلهم في ذلك مثل الرجل
الذي عود معدته لونا أو ألواناً من الطعام اليسير السهل الذي
لا يغذى ولا يجهد ، فإذا اضطر إلى لون آخر من ألوان الطعام
فيه شيء من دسم أو غذاء لم يسغه ، فإن أساغه لم يهضمه . ومن

هنا لا يميل قراؤنا الى هذا الشيء القليل من الشعر القيم ، الذى يظهر فيه أثر العقل كما يظهر فيه أثر الخيال ، فيجب أن نكون منصفين ، وأن نعرف بأن من شعرائنا من تكره طبيعتهم هذا الكسل وتميل الى القراءة والدرس والتفكير وتحب أن تظهر آثار هذا كله فى شعرها ولكن هؤلاء الشعراء لا يجدون من قرائهم تشجيعاً ، ولا يرون من أقرانهم الشعراء الا حسداً وحقدأً وحرماً شعواء ، تعلن عليهم جهراً مرة ومن وراء ستار مرة أخرى ، وهؤلاء الشعراء ليسوا كثيرين أذكر فى مصر منهم خليل مطران والمقاد . وفى العراق معروف الرصافى وجميل صدقى الزهاوى ولكن كثرة القراء تؤثر على شعر هؤلاء شعر شوقى وحافظ وهى تؤثر هذا الشعر لأن حظه من التفكير قليل فيقف الشعراء من قرائهم موقفين مختلفين : فاما أن يذعنوا لهؤلاء القراء ليروج شعرهم ويثبتوا لمنافسة خصومهم ، وإما أن لا يحفلوا بالقراء ولا بالخصوم ويمضوا فى مذهبهم الشعرى لأنهم يقولون الشعر لا أنفسهم قبل أن يقولوه للناس ، ومن الذين يذعنون للقراء فيسيثون الى أنفسهم والى الشعر ، ويؤخرون تطور الشعر تأخيراً عليهم إثمه : مطران فانا أعرفه من أشد الناس ميلاً الى القراءة والدرس ، ومن

أحرصهم على أن يكون شعره مظهرًا لعقله وخياله معاً. وقد قرأت له شعراً أشهد أني لم أقرأ مثله لشعرائنا الذين يخلبون الناس بهرج اللفظ وزخرف الأسلوب. ولكنه يحس من قرائه مفتوراً، ومن أقرانه إعراضاً وازدراء وأزوراراً فيجاري أقرانه ويقول من الشعر مثل ما يقولون، فلا يبلغ من الزخرف والبهرج والفتنة الكاذبة ما يبلغون. ومن الذين لا يحفلون بأعراض القراء وكيد الخصوم، وإنما يمضون في طريقهم جادين لا يلوون على شيء لأنهم يؤمنون بمذهبهم في الشعر ويتخذون من هذا المذهب لهم فلسفة أدبية عباس العقاد وجميل صدقي الزهاوي، قد لا تعجبني أحياناً صورهما اللفظية، وقد يقصران أحياناً عن الإجادة اللفظية الممتعة، ولكن خصوماً يستطيعون أن يقولوا ما يشاءون، دون أن يوفقوا إلى إثبات أننا حين نقرأ شعر هذين الرجلين لا نقرأ كلاماً فارغاً ولا نخرج منه كما دخلنا فيه، وإنما نرى فيه شخصية لها وزن وقيمة وعقلية تفكر وتعرف كيف تعلن تفكيرها إلى الناس.

فأنت ترى أيها الصديق أن ظاهرة الكسل العقلي تظهر أولاً عند الشعراء، ثم تنتقل منهم إلى القراء ثم تعود من القراء إلى الشعراء، فتنتج فساد الشعر والذوق والخلق معاً، وتحول

بين هذا الفن الأدبي وبين حقه من التطور والتحديد .
وقد أنستنى هذه الملاحظة أو كادت تنسينى الملاحظة
الثانية التى ألاحظها على مقالك القيم ، فأنت مصيب حين
تلاحظ أن الشعر فى العصر العربى كان كل شىء فى الأدب
العربى . ولكنى أخشى أن يكون إطلاق هذا الحكم مبعداً
لك بعض الشىء عن الصواب . فقد كان للعرب العباسيين
نثر ، وكان لهم نثر قيم . وليس ذنب العرب أننا لم نقرأ هذا النثر
ولم ندرسه كما قرأنا الشعر ودرسناه ، وإنما ذلك ذنبنا نحن
وأحسب أنك لو عנית بأدب العصر العباسى عناية صالحة
لغيرت رأيك بعض الشىء فى النثر ، ولو افقتنى على أن الشعر
كان ظاهر المكانة فى الأدب العباسى ؛ ولكن النثر لم يخل من
جمال ورونق فنى صحيح . على أن الآية قد انعكست الآن فأصبح
الأدب العربى الحديث نثراً كله وأصبح الشعر بفضل الشعراء
وكسلهم العقلى فناً عرضياً ، لا يحتفل به إلا اللهو والزينة والزخرف ،
فاذا أراد بنك مصر أن يفتح بناءه الجديد طلب الى شوقى
قصيدة فنظم له شوقى هذه القصيدة ، واذا أرادت دار العلوم
أن تحتفل بعيدها الخمسينى كما يقولون طلبت الى شوقى والجارم
وعبدالمطلب أن ينظموا لها قصائد فنظموا لها القصائد . واذا

مات عظيم وأريد الاحتفال بتأبينه ، أو نبه نابه وأريد الاحتفال
بتكريمه طلب الى الشعراء أن ينظموا الشعر في المدح والثناء فنظموه
كما كان ينظمه القدماء . فانحط الشعر حتى أصبح كمذه الكرامى
الجميلة المزخرفة التى تتخذ فى الحفلات والمآتم ، وأصبحنا لا
نتصور حفلة بغير قصيدة لشوقى أو حافظ ، كما أننا لا نتصور
عيداً أو مأتماً بغير مغن أو مرتل للقرآن ، فأما الشعر الذى
يقال لنفسه ، الذى يقال ليجلو مظهرأ من مظاهر الجمال الطبيعى ،
الذى يقال ليكون صلة بين نفس الشاعر ونفس القراء ، الذى
يقال لا ليشمق عاطفة من العواطف أو هوى من الأهواء ،
فلا تلمسه عندنا ولكن التمسه عند قوم آخرين عرف شعراؤهم
لأنفسهم كرامتها ، فربأوابها عن أن تكون أداة للهو والزينة .
وأنت أيها الصديق دعوت الى الاحتفاء بتاجور حين
مر بمصر ، وكنت قوام هذا الاحتفاء وأنت لم تحتف بتاجور
الا لأنك قرأت شعره فأعجبك وراقك ، كما يعجبك ويروقك
شعر النابهن من أهل أوروبا القديمة والحديثة . أفترى أن
لتاجور ديواناً أو مجموعة قصائد وقفت على المدح والثناء
وافتاح المصارف والاحتفال بالمدارس؟ الست تلاحظ أن
شعر تاجور شعر انسانى ، وأن شعر شعرائنا شعر أشخاص

وظروف ؟! ولتاجور فلسفة كما الشعرى والمتنبى فلسفة ، فإين
فلسفة شوقى أو حافظ أو البارودى أو مطران ؟! وتاجور
ترجم شعره الى اللغات الأوروية فأصبح شاعراً عالمياً يكبره
الغرب الحديث كما يكبره الشرق القديم . فهل لو ترجم شعر
شوقى أو حافظ الى الانجليزية أو الفرنسية أو الألمانية يقرأ
ويعجب ويغلب العقول ويضمن لأصحابه جائزة نوبل كما
ضمنها لتاجور ؟ كلا ! وليس مصدر ذلك الا أن تاجور لا
يزدرى العقل ولا يسلم نفسه للخيال وحده ، وأن أصحابنا لا
يلتمسون شعرهم فى العالم الحقيقى المعقول ، وإنما يلتمسونه فى
هذا الدخان الذى يرسلونه من افواههم حين يدخنون السجائر
أو الشيشة :

وأرأنى قد أطلت عليك ولا أقول أطلت على القراء ، فأنا
لم أكتب للقراء وإنما كتبت اليك أنت . وأكبر ظنى أنك
ستذيع هذا الكتاب ، فأنت فى حل من ذلك ان شئت . أن
كنت أوتر أن تستبقه لنفسك . ولكنى ألح عليك إن
اعتزمت نشر هذا الكتاب ألا تمسه بتغيير أو اصلاح ، فأنا
من أشد الناس بغضاً لهذا النوع من التغيير والاصلاح . وأنا
أحب أن يعرفنى الناس كما أنا ، لا كما تحب أنت أن يعرفونى أوثر أن

يعرفني الناس كما أنا فيكرهوني على أن يعرفني الناس كما تريد
أنت فيجبوني . وأنا أهدى اليك تحية ملؤها المودة الصادقة .

— ١٣ —

الثناء في شعر حافظ

رحم الله حافظاً ! ما أرى أن الذين سيعرضون لراثه من
الكتاب والشعراء سيوفونه حقه أو يبلغون من ذلك ما كان
يبلغه هو حين كان يعرض لراث الأعلام الذين كان يفقد
هذا البلد من حين إلى حين !

فقد كانت نفس حافظ رحمه الله تمتاز بشيئين أتاحا لها
إجادة الرثاء واتقانه والبراعة فيه ، كانت قوية الحس كأشد
ما تكون النفوس الممتازة قوة حس وصفاء طبع واعتدال
مزاج . وكانت إلى ذلك وفيه رضية لا تستبقي من صلاتها
بالناس إلا الخير ، ولا تحتفظ إلا بالمعروف ، ولا ترى
للاحسان والبر جزاء يعدل الاشادة به ، والثناء عليه ، ونصبه
للناس مثلاً يحتذى ونموذجاً يتأثر . وكانت إلى هذا وذاك
ترى ديناً عليها ، لا أقول لنفسها ولا أقول للناس ، وإنما أقول
للنفس والحق والتاريخ . لا ترى خيراً إلا سجلته ، ولا تحس
معروفاً إلا أذاعته ، كأنما كان الذين يحسنون إلى أنفسهم أو

الى خاصتهم أو الى جماعة من الناس قليلة أو كثيرة يحسنون
الى حافظ نفسه ، وكأنما كان حافظ يؤمن بأن من الحق عليه
أن يشكر للمحسن إحسانه ، ويسجل لصاحب المعروف
معروفه ، مهما يكن مصدر هذا الاحسان والمعروف ، ومهما
يكن موضوعهما ! فهذا أحد الأمرين الذين كانت تمتاز بهما
نفس حافظ : حس قوى دقيق ، وخلق رضى كريم . فأما
الأمر الآخر فصلة غريبة متينة بين هذه النفس القوية
الكريمة وبين نفوس الشعب وميوله وأهوائه وآماله ومثله
العليا .

رحم الله حافظاً لم يكن فرداً يعيش لنفسه بنفسه ، وإنما
كانت مصر كلها ، بل الشرق كله ، بل الانسانية كلها فى كثير
من الأحيان تعيش فى هذا الرجل ، تحس بحسه ، وتألم بقلبه ،
وتفكر بعقله ، وتنطق بلسانه ، لا أعرف بين شعراء هذه
الأيام شاعراً جعلته طبيعته مرآة صافية صادقة لحياة نفسه
ولحياة شعبه كحافظ رحمه الله . فالذين يقرأون شعره الآن
والذين كانوا يقرأون شعره فى حياته ، والذين كانوا يستمعون
له إذا أنشد الشعر فى المجالس الخاصة والمجامع العامة ؛
يؤخذون بهاتين الصورتين الواضحتين كل الوضوح : صورة

الشعب وما يجد من ألم وأمل ، وصورة حافظ وما يحس من
بأس أو رجاء . كذلك كان حافظ ، وكذلك كانت نفسه ،
وكذلك كانت الصلة بينه وبين الناس . فليس غريباً أن تقع
الكوارث من نفسه أشد وقع ، وأن تثير فيها عواطف لذاعة
من الألم والحسرة ، ومن الحزن واللوعة . وليس غريباً أن
ينطق لسانه بالشعر في تصوير هذه العواطف فيبلغ من ذلك
ما يريد في غير مشقة ولا عناء ، ويصل الى هذه المنزلة التي
لا يصل اليها الشعراء إلا أن يكونوا مطبوعين أو أن تكون
الظروف قد واتتهم وأتاحت لهم من أسباب القدرة والبراعة
ما يقربهم من المطبوعين . وهي أن يبلغوا بالذين يقرأونهم
ويستمعون لهم مثل ما في أنفسهم من الحزن واللوعة ، ومن
الحسرة والأسى ، فاذا بكوا بكى معهم الناس صادقين . وإذا
جزعوا جزع معهم الناس مخلصين .

هذه منزلة لا أعرف كثيراً من شعراء العربية في العصر
الحديث قد بلغوا منها ما بلغ حافظ ، فبين شعرائنا في هذه
الأيام من يرثون فيحسنون الرثاء ، ويحيدون وصف الفقيد
الراحل وتعيد خلالهم ومآثره ، ويتقنون وصف الحزن
عليه والأسى لفراقه ، ويبلغون البراعة في ضرب الأمثال

السائرة وإرسال الحكم البالغة ويجمعون من هذا كله ما يحسن
وقعه في القلوب ، وما يلد الأسماع والعقول معاً ، ولكنهم
لا يثيرون على ذلك كله ما في النفوس من عواطف الحزن
الكامنة ، ولا يذرفون من العيون هذه الدموع الغزيرة كما
كان يفعل حافظ لأن أكثر هؤلاء الشعراء يرثون ولكن
عن غير حزن صادق ، ويندبون ولكن عن غير لوعة محرقة ،
هم يقصدون من الرثاء على أنه فن من فنون الشعر يجب أن
يساهموا فيه وعلى أن مكاتبتهم الأدبية تضطرهم إلى أن تكون
لهم في الرثاء كلمة مسموعة ، أما حافظ فكان يرثي لأنه يحزن ،
وكان يحزن لأنه يحب ، وكان يجب لأن الله قد وهبه نفساً
رضية مؤثرة لم تبرأ من شيء قط كما برئت من الأثرة ، وكما
برئت من الضغينة والحقده .

كان حافظ ينتهي من حب أصدقائه إلى حيث لا يقدر
أن يئنه وبينهم فرقاً ، إلى حيث يراهم جزءاً من نفسه . وكان
حافظ كما قدمت يحب الشعب ويحس بحسه ويشعر بشعوره ،
فكان إذا رثي علماً من أعلام مصر كأنما يرثي نفسه أولاً ،
وأنما يرثي أمته ثانياً . وقد أتيج لحافظ أن يكون صديقاً
وفياً لهؤلاء الأعلام الذين سعدت مصر بحياتهم وشقيت

بوفاتهم منذ أول هذا القرن . وقد تقول إن هذه الصداقة أتيت لغير حافظ من الشعراء ، ولكنى حدثك عن وفاء حافظ وإيثاره وزهده في متاع الدنيا واشتغاله عن المنافع العاجلة بالمثل العليا . فلا بدع أن يمتاز رثاء حافظ بصدق اللهجة ، وأن يبلغ من نفوس الناس ما لا يبلغه رثاء غيره من الشعراء المعاصرين .

أراد قدامة في أواخر القرن الثالث للهجرة أن يضع للشعر أصولاً ونظماً ، لا يجوز للشعراء أن يتعدوها ويخرجوا عنها . فلما بلغ الرثاء زعم وزعم معه النقاد الذين جاءوا من بعده أن الرثاء والمدح فن واحد في حقيقة الأمر ، وأن الفرق بينهما أن أحدهما يتناول الميت والآخر يتناول الحي ، وأن مظهر هذا الفرق أن من ذكر الميت لجأ إلى الفعل الماضي فحكى عنه وقال كان كريماً أو كنت كريماً ، ومن ذكر الحي لجأ إلى الفعل المضارع أو الى ما في حكمه من أنواع الجمل فقال هو كريم أو أنت كريم وما يشبه هذا ، ولم يهتد قدامة وأصحابه في الرثاء إلى أكثر من هذا المقدار ، أو قل إنهم لم يهتدوا إلى شيء ، فان العواطف التي تبث على الرثاء غير العواطف التي تبث على المدح قوام تلك

الحزن واليأس ، وقوام هذه البهجة والرجاء . وقد يكون
الاعجاب مشتركاً بين الرثاء والمدح . ولكن قلنا يكون
الاعجاب وحده مصدراً لمدح أو رثاء حتى تصحبه رغبة أو
رهبة ، أو أمل أو حسرة ، أو لوعة أو قنوط . وأكبر الظن أن
كثيراً من الشعراء المعاصرين الذين يذهبون مذهب البارودي
وحافظ في الشعر ويحيون فيه سنة للقدماء لا يزالون يرون
المدح والرثاء كما كان يراهما قدماء وابن رشيق وغيرهما من
النقاد المتقدمين تعديداً للمآثر والمفاخر ولوناً من ألوان المدح
للأموات . وكان حافظ - رحمه الله - في أول عهده بالشعر
يذهب هذا المذهب ويغلو فيه لأنه كان يقلد القدماء تقليداً
ويحاكيهم محاكاة تذهب بشخصيته أو تكاد تذهب بها .
فأنت إذا قرأت رثاءه لبعض الأباطين في الجزء الأول من
ديوانه أعجبت باللفظ أكثر مما تعجب بالمعنى ، ولم تجد في
هذا الرثاء حزناً صادقاً ولا لوعة محرقة ، وإنما أحسست
كأنك تقرأ شعر طالب وضع أمامه نماذج من الشعر القديم
وأراد محاكاتها ، فأخذ معاني القدماء وذهب مذهبهم في الغلو
السقيم أحياناً وكأنه لم يدفع إلى هذا الرثاء بطبيعته الرقيقة
المحزونة . وإنما دفع إليه بمحاكاة أصدقائه من الأباطين ، فانظر

الى هذه الدالية مثلاً ، فسترى أن حافظاً رحمه الله قد كان فيها
عيالاً على دالية أبي العلاء التي مطلعها :

غير مجد في ملتي واعتقادي نوح باك ولا ترنم شادي
أخذ معنى من معانيها فجعل يطوّله ويمد فيه ويقلبه على
وجوه عدة ، ولكنه لم يجوده ولم يأت فيه بطائل ولم يبلغ
منه بعض ما بلغ أبو العلاء قال حافظ :

أيها الثرى إلام التماذي بعد هذا أنت غرثان صادي؟
أنت تروى من مدمع كل يوم وتغذى من هذه الأجساد !
قد جعلت الأنام زادك في الدهر وقد آذن الورى بالنفاد !
فالتمس بعده المجرة ورداً وتزود من النجوم بزاد !
فانظر الى هذين البيتين الأخيرين فسترى فيهما مبالغة أشبه
بمبالغة الناشئين في الشعر ، لا تستقيم مع العقل ولا تكاد تدل
على شيء . وكيف بشاعر يزعم أن التراب أكل الناس حتى
كاد يأتى عليهم وشرب الدموع حتى كاد يستغرقها ، وينصح له
أن يلتمس شرا به في المجرة وطعامه في النجوم ؟ وحافظ يمضى
في التفصيل والتطويل دون أن يبلغ قول أبي العلاء :

خفف الوطأ ما أظن أديم الأَرْض إلا من هذه الأجساد
وقبيح بنا وإن قدم العهد هو ان الأباء والأجداد

ولكنك تلمح هذا النوع من القصور في أكثر القسم الأول من شعر حافظ، لافي الرثاء وحده بل في فنونه الشعرية كلها ، فحافظ لم ينشأ شاعراً وإنما اكتسب الشعر اكتساباً وأنفق حياته كلها في تجويد شعره وتحسينه . على أنه لم تكدر تتقدم به الحياة حتى ظهرت فيه هذه الخصال التي أشرت إليها والتي قضت له بالتفوق في الرثاء فانظر اليه حين رثى الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده : كيف غابت طبيعته صناعته؟ وكيف تحدث قلبه وإيمانه الى قلوب المسلمين وإيمانهم؟ وكيف انتقل حزنه ووقاؤه الى نفوس الناس فعلمهم كيف يجدون لذع الحزن وكيف يستعذبون لذة الوفاء؟ وهو على ذلك لم يخل بأصول الفن كما عرفها المتأدبون القدماء من تعديد المآثر والمفاخر وهو متين رصين اللفظ بديع الأسلوب لا يعرف الضعف ولا الوهن الى شعره سبيلاً :

سلام على الاسلام بعد محمد

سلام على أيامه النضرات

على الدين والدنيا ، على العلم والحجى

على البر والتقوى ، على الحسنات

لقد كنت أخشى عادى الموت قبله
فأصبحت أخشى أن تطول حياتى ١

فوا لهنى والقبر بينى وبينه
على نظرة من تلك النظرات ١
وقفت عليه حاسر الرأس خاشعاً

كأنى حبال القبر فى عرفات
لقد جهلوا قدر الأمام فأودعوا

تجاليده فى موحش بفلاة
ولو ضر حوا بالمسجدين لأنزلوا

بخير بقاع الأرض خير رفات

فى لفظ هذه الآيات من الروعة والرصانة ما عرفناه
فى شعر حافظ كله أو أكثره ، ومعانى هذه الآيات مألوفة
شائعة ، ليس فيها غرابة ولا ابتكار . ولكن فى الآيات مع
ذلك شيئاً لا أدرى ماهو ! يملأ النفوس لوعة والقلوب أسى ،
بل أنا أدرى ماهو : هو قبس من هذه النار التى كانت تضطرم
فى نفس حافظ حزناً صادقاً على صديقه ووليه وأستاذه ، نفذ
هذا القبس الصادق فى هذا الشعر العادى فجعله حزناً كله .
ثم انظر الى هذا الجزع العظيم ، كيف تصور كأنه طوفان مهلك

يفسر كل شيء ويأتى على كل نفس ، حتى فزع الشاعر منه وقد
ملكه الدهول واستأثر به اليأس فقال :

تباركت هذا الدين دين محمد

أترك في الدنيا بغير حماة !

تباركت هذا عالم الشرق قد قضى

ولانت قناة الدين للغمزات

ثم انظر الى هذين البيتين كيف يصوران اليأس اللاذع

والقنوط المميت :

مددنا الى الأعلام ، بعدك راحنا

فردت الى أعطافنا صفرات

وجالت بنا تبغى سواك عيوننا

فعدت وآثرن المعنى شرقات

ولو أنى ذهبت أحلل القصيدة كلها وأختار منها لما تركت

منها بيتاً واحداً فكلها جيد ، إما لجدة المعنى وإما لرصانة

اللفظ وإما لصدق اللهجة ، وإما لهذه الخلال كلها مجتمعات .

وانظر الى هذه الآيات التى وصف فيها حافظ حزن الشرق

على الأستاذ الإمام ، وهى الآن أصدق ما يقال فى حزن

الشرق على حافظ نفسه :

بكى الشرق فارتجت له الأرض رجة
وفاضت عيون الكون بالعبرات
ففى الهند محزون ، وفى الصين جازع
وفى مصر باك دائم الحسرات
وفى الشام مفعجوع ، وفى الفرس نادب
وفى تونس ما شئت من زفرات !

ولست أقف عند ما فى هذه القصيدة من وصف للاستاذ
الامام من نواحيه المختلفة ، لا لانى عجل بل لانى أكره أن
أظلم غيرى من الأصدقاء الذين يكتبون عن حافظ . ولكنى
أحب أن تقرأ معى هذه الآيات التى ختم بها حافظ رثاءه
للأستاذ الامام لتمثل ما فيها من الحزن الصادق والاعتراف
بالجميل ، وكان حافظ أشد الناس اعترافاً بالجميل وأحرصهم
على شكر من أحسن اليه أو شملته منه يد مهما تكن يسيرة
ضئيلة .

قال حافظ :

فيا منزلاً فى عين شمس أظلنى
وأرغم حسادى وغم عدائى

دعائه التقوى وآسسه الهدى
وفيه الأيادى موضع اللبسات
عليك سلام الله مالك موحشاً
عبوس المغاني ، مقفر العرصات ؟
لقد كنت مقصود الجوانب أهلاً
تطوف بك الآمال مبتهلات
مثابة أرزاق ومهبط حكمة
ومطلع أنوار وكنز عظات

هذه قصيدة خالدة من غير شك وهي لا تستمد نخلودها
من قلت فيه وحده ولا من قالها وحده ، وإنما تستمد هذا
الخلود من الرجلين جميعاً . فقد كانت حياة الأستاذ الامام
شيئاً رائعاً ، واستطاع حافظ أن يعطى منها صورة رائعة . وما
أكثر ما قال الشعراء في الأستاذ الامام بعد موته ! ولكنك
تستطيع أن تقرأ هذا الشعر الكثير فستجد منه الحسن
الجميل ، وستجد منه المتوسط وستجد منه الرديء دون أن
تظفر بمثل هذه القصيدة روعة وجمالاً وصدقاً لطيفة
واستحقاقاً للخلود .

ورثي حافظ أستاذه البارودي فيمن رثاه من الشعراء

فوفق الى جودة اللفظ ورصانته ، ووفق الى احياء الأسلوب
القديم في رثاء هو بالمدح أشبه . ولكنه على ذلك لم يبلغ أن
يمس القلوب بهذا الحزن اللاذع . ومع أنه لم يكن يريد
الصدق في أول هذه القصيدة حين يقول :

ردوا على ياني بعد محمود

انى عيت واعيا الشعر مجهودى

ما للبلاغة غضبي لا تطاوعنى

وما لحبل القوافى غير ممدود ؟

فليس من شك انه قد صدق وقال الحق فمضى واعى
الشعر مجهوده ، وامتمت عليه البلاغة وقصر عليه حبل القوافى
على ما حاول من تقليد مسلم بن الوليد فى داليتة المشهورة :
« لاتدع بى الشوق انى غير معمود ،

ومصدر ذلك فيما يظهر ان حافظاً تهيب إمام الشعراء
ميتاً كما كان يتهيبه حياً ، واعتقد انه مهما يقل فى البارودى فقل
يلغ من رثائه ما يريد ، فقل ذلك من حده وقتاً فى عضده وقصر
به عن غايته . ومصدر ذلك ايضا فيما يظهر ان موت البارودى
لم يكن رزماً شعبياً أو لم يره الناس كذلك فى وقته وانما كان
رزماً للادباء وابرع ما يكون حافظ فى الرثاء حين يصور

حزن الشعب وألمه . لذلك جاد كل الاجادة في رثاء الاستاذ
الامام وفي رثاء مصطفى كامل لأن الاول كان فقدته رزماً في
عظيم من عظماء الدين ومن عظماء النهضة الفكرية ولأن الثاني
كان فقدته رزماً في عظيم من عظماء السياسة . فكان حافظ في
رثائهما ناطقاً بلسان الجماهير .

وبراعة حافظ في تصوير آلام الشعب اكتسبت شعره
السياسي ورثاءه لأصحاب السياسة لونا من الخطابة يمنحه قوة
غريبة تسيطر حقاً على نفوس الجماعات فتفعل فيهما الأعاجيب
انظر الى قوله في رثاء مصطفى كامل :

انى ارى وفؤادى ليس يكذبني
روحا يحف به الاكبار والعظم
ارى جلالا، ارى نوراً، ارى ملكا
ارى محيا يحينا ويبسم
الله اكبر هذا الوجه اعرفه
هذا قى النيل هذا المفرد العلم
غضوا العيون وحيوه تحيته
من القلوب اذا لم تسعد الكلم

وأقسموا أن تذودوا عن مبادئه

فنحن في موقف يحلو به القسم

ليكن نحن الألى حركت أنفسهم

لما سكنت ولما غالك العدم

جئنا تؤدي حساباً عن مواقفنا

ونستعد ونستعدى ونحتكم

ألا ترى الى هذه الايات ، وكيف استحضر الشاعر فيها

شخص الزعيم يحف به الجلال والعظمة ، وكيف مهد لهذا

الاستحضار بهذا البيت الأول الذى خرج فيه عن طور

العادى وأخرج الناس معه عن أطوارهم ، وهياهم لموقف غير

مألوف ثم أخذ يدفعهم الى هذا الموقف دفعاً ويملاً قلوبهم

هبة وإجلالاً بهذا البيت الذى ألفه من جمل منقطة قصيرة

وختمه بصورة خلاصة رائعة :

أرى جللاً أرى نوراً أرى ملكاً

أرى حياً يحينا ويتسم

ثم انظر اليه كيف استأثر به الدهول وغلبه على نفسه

وملك عليه كل أمره فصاح :

الله أكبر هذا الوجه أعرفه

هذا فتى النيل هذا المفرد العلم

ثم انظر إليه بعد ذلك وقد أكد الجمهور وأنساه نفسه
وملك عليه شعوره وحسه وأقنعه بأنه أمام الزعيم كيف
يتحدث الى هذا الجمهور بهذا الحديث الذى تملؤه المهابة والروعة
والحب معاً فيقول :

غضوا العيون وحسوه تحيته

من القلوب اذا لم تسعد الكلم

ثم يتجه بعد ذلك الى الزعيم نفسه فيصبح صيحة كلها ايمان
وطاعة ويقين واعمجاب .

ليك نحن الالى حركت أنفسهم

لما سكنت ولما غالك العدم

هذه أبيات لو قرأها أرسططاليس صاحب الخطابة

ومنشىء علم البيان لما تردد فى أن يتخذها مثلاً لما يسميه فى
الكتاب الثالث من الخطابة وضع الشئ تحت العين .

ورثى حافظ قاسماً فلم يكن فى رثائه اياه شعبياً ولا شاعر

جمهور بالمعنى الذى نراه فى رثائه للاستاذ الامام والمصطفى
كامل، وانما كان انساناً حساساً قوى الحس محزوناً صادق الحزن

ومصرياً مشفقاً على مصر من هذه الأحداث التي تلم بها سراعاً
فتنتزع أعلامها انتزاعاً ، انظر الى قوله :
مالي أرى الأجداث حالية

وأرى ربوع النيل في عطل
فاذا الكنانة أطلعت رجلاً

طاح القضاء بذلك الرجل
أو كلما أرسلت مرثية

من أدمعى في إثر مرتحل
هاجت بي الأخرى دفين أسى

فوصلت بين مدامع المقل
وان خانني فيما فجعت به

شعري فهذا الدمع يشفع لي
وانظر إلى هذه الأيات وإلى ما أدرك الشاعر فيها من
المعنى الخصب الكثير في اللفظ العذب القليل :

قد كنت أشقانا بنا وكذا

يشقى الأبى بصحبة الوكل

لهني عليك قضيت مرتجلاً

لم تشك ، لم تستوص ، لم تنل

غالى القضاء يد القضاء فذا

يكي عليك ، وذاك فى جذل

وقد عرض حافظ فى هذه القصيدة لرأى قاسم فى السفور
والحجاب فتحفظ ولم يقطع ولم يعلن مناصرة صاحبه . وكان
فى ذلك مصورا (سواء أراد أو لم يرد) لموقف كثير من
المستثيرين فى ذلك العصر كانوا يرون رأى قاسم ، ولكنهم
يشفقون من الجهر به ويرجئون الأمر الى الأيام تقضى فيه
بالحق . فانظر الى حافظ كيف يقول :

ان ريت رأيا فى الحجاب ولم

تعصم فتلك مراتب الرسل

الحكم للأيام مرجعه

فما رأيت فم ولا تسل

وكذا طهارة الرأى تركه

للدمر ينضجه على مهل

فاذا أصبت فانت خير قى

وضع الدواء مواضع العلل

أولا فحسبك ما شرفت به

وتركت فى دنياك من عمل

ثم أثار موت قاسم في نفس حافظ ذكرى أصدقائه الذين ذهبوا من أعلام مصر وقادة الرأي فيها ، ومن الذين كان يسعد حافظ بمودتهم له وعطفهم عليه وكانوا يسعدون ببقائه وحديثه الحلو وأدبه العذب فقال هذه الآيات التي تفيض حزناً وأسى ، وتملاً نفوسنا حزناً وأسى كلها قرأناها . وأينا لا يجد نفسه في هذه المنزلة التي وجد حافظ فيها نفسه يوم مات قاسم فذكر حافظ به موت الذين سبقوه ولقد مات أصدقاء لحافظ بعد قاسم فذكر بهم قاسماً ومات حافظ الآن فحزنا لموته ، ونحن نذكر به موت أصدقائنا الذين سبقوه . وكذلك يريد الله أن يجعل قلوب الأحياء قبور لأصدقائهم الذين يسبقونهم إلى الموت ، ومن خير ما في هذه الآيات بأس حافظ مما انتهت إليه الحياة بعد أصدقائه هؤلاء . ومما انتهت إليه مصر من فساد الحال واعوجاج الأمر بعد أن رحل عنها أولئك المصلحون ، والغريب أن ما قاله حافظ بعد موت قاسم نستطيع أن نرده الآن بعد موت الذين ماتوا من زعماء مصر وقادتها ، فليس مصر بالبلد الذي يمكن أن يتمثل فيه بقول الشاعر القديم :

إذا مات منا سيد قام سيد

قؤول لما قال الكرام فعول

وانما يمضى الزعيم او المصلح فيخطو مكانه ويظل خالياً
وينساه الناس ولا يذكره منهم الا الاقلون .
قال حافظ :

واما على دار مررت بها فقرا وكانت ملتقى السبل
أرخصت فيها كل غالية وذكرت فيها وقفة الطلل
ساءلتها عن قاسم فأبت رد الجواب فرحت في خبل
متعثرا ينتابني وهن مترنحاً كالشارب الثمل
متذكرا يوم الامام به يوم انتويت بذلك البطل
يوم احتسبت وكنت ذا أمل تحت التراب بقية الأمل
جاور أحبتك الألى ذهبوا بالعزم والاقدام والعمل
واذكر لهم حاج البلاد الى تلك النهى في الحادث الجلل
قل للامام اذا التقيت به في الجنتين بأكرم النزل
إن الحقيقة أصبحت هدفا للراكين مراكب الزلل
لله آثار لكم خلدت صاح الزوال بها فلم تزل
لله أيام لكم درجت طالت عورافها ولم تطل
نعم الظلال لو انها بقيت أو ان ظلا غير منتقل
أترانا نحمل حافظاً رحمه الله شيئاً غير هذا لو أردناه على
أن يصور لأصحابه الأكرمين حال مصر بعد أن تركوها !

ألسنا نحمله مثل هذا الى الاستاذ الامام والى قاسم ومصطفى كامل والى سعد و ثروت ؟ بلى ، لقد قلت لك انى لا أرى ان الذين سيرثون حافظا من الكتاب والشعراء سيبلغون من رثائه ما كان يبلغ هو من رثاء الذين رثاهم من زعماء مصر وأئمتها . على أن لحافظ رثاء تقليدياً أو قل رثاء اضطراليه اضطراراً للجاملة ، أولان مكانته كانت تضطره اليه . ومن هذا الرثاء التقليدى ما قاله الشاعر قبل أن ينضج فنه كهذا الرثاء الذى قاله فى بعض الأباطين والذى أشرت اليه منذ حين ، وكقصيدته التى يعزى بها الانجليز عن تقديم للمكتهم فيكتوريا ، ومن هذا الرثاء التقليدى ما قاله الشاعر وقد نضج فنه وتمت له أداة الشعر فأجاد اللفظ ووفق الى معان حسان ، منها المبتكر ومنها المستعار ، ولكنه على كل حال لم يستطع ان يمس القلوب وان استطاع ان يثير الاعجاب ، وربما كان رثاؤه لرياض باشا أصدق مثال لهذا النوع من الشعر الذى بكى فيه الشاعر بلسانه وعقله ولم يبك فيه بقلبه ولا وجدانه .

ولحافظ فى رثائه بل فى شعره كله صور يقلد فيها القدماء ولكنه لم يحققها ولم يحصها ، ولم يكن حافظ يحفل بمثل هذا التحقيق والتمحيص لأنه كان يؤمن بروعة اللفظ وأثرها فى

نفس السامع والقارىء، وكان يعتقد ولعله كان مصيباً أن كثيراً من قرائه وسامعيه كانوا مثله لا يعينهم التحقيق ولا التمهيص، ولا يكلفون الشعر ما يكلفون النثر من الدقة وتجنب المحال، فحافظ يجرى الدموع أنهاراً ويخيل الى نفسه والى الناس ان هذه الدموع الجارية تستطيع ان تحمل الفقيد الى قبره وحافظ يوجب الأتقاس ناراً ويخيل الى نفسه والى الناس أن هذه النار تستطيع ان تحرق المشيعين لولا ما يقاومها مع الدموع . وحافظ كما رأيت يكلف تراب الأرض أن يشرب من الحجرة ويأكل من النجوم . وحافظ يطلب الى قبر مصطفى كامل أن يكبر ويهلل وان يلقي ضيفه جائئاً . وقد سأله رحمه الله ذات يوم كيف تتصور القبر جائئاً ؟ فقال دعنى من نقدك وتحليلك، ولكن حدثنى أليس يحسن وقع هذا البيت فى أذنك ؟ أليس يثير فى نفسك الحزن ؟ أليس يصور ما لمصطفى من جلال ؟ قلت بلى ولكن . . قال دعنى من لكن واكتف مثلى بهذا .

رحم الله حافظاً لم يكن رثاؤه صورة لما يثور فى نفسه ونفس الناس من حزن فحسب ، وانما رثاؤه يصلح مصدراً من مصادر التاريخ السياسى والاجتماعى فى هذا العصر ؛ فقد كان حافظ يبالغ ويغلو ويطلع الخيال ويضطر الى المحال

ولكنه رغم هذا كله لم يكن يفسد الحقائق ، ولا يعبث بها ،
وانما كان مؤرخاً صادقاً للحوادث في رثائه وشعره السياسى ،
كما كان مصوراً متقناً للنفوس .

رحم الله حافظاً ! ان فصلاً قصيراً كهذا الفصل لا يسع
رثاءه ولا ينهض بنقده وتحليله كما ينبغي أن يكون النقد
والتحليل . واني لأرجو أن نبلغ من ذلك ما نريد في الكتاب
الذى سيبأ الآن لدرس شاعر النيل .
